فكاهات

روايات

حفظ العهود (١)

اذا انت لم تعشق ولم تدرِ ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا

كان في احدى قرى سويسرا المشهورة بجمال مناظرها وحسن موقعها واعتدال هوآئها وعذب مآئها فتى غض الشباب من أُسرة كبيرة اشتهر افرادها بالصدق والامانة والوفآء يقال لهُ راعول . وكان لا يميزهُ عن اقرانهِ الاّ كثرة شقآئهِ وشدة حبه وخيبة آماله فكان في نزاع دائم مع الايام ولم يكن لهُ من الأُهبة لحربها الاّ نفسٌ ابية وهمة لا تعرف الوناء وقلبٌ لا يملّ من الامل وتوقّع الفرج وادراك المنى . وكان قد حدث لهُ في اول ايامهِ انهُ احبّ فتاةً كان يظنها موضع آمالهِ وعنوان سعادتهِ فاخلصت لهُ الحب اولاً ثم غدرت بهِ وعكفت على حب غيرهِ من الشبان فكانت كالنحلة التي تقع على كل الازهار دون تمييز بينها على شرط ان تجني منها عسل الساعة . فشقّ عليهِ خيانة الفتاة ومذ ذاك شعر كأنّ قلبهُ قد تحوّل الى حجر وان الحبّ لن ينفذ اليهِ من بعد ولم يلبث ان رأى الفتاة قد صارت زوجةً لاحد الذين اصطادتهم باشراكها فنزع خيالها من فكره ونسي انهُ هام قبلاً بها وربما كان النسيان من افضل انواع العقوبة للخيانة

(١) بقلم نقولا افندي بدران

ثم مرَّ على ذلك زمنٌ ليس بقصير وظن راعول ان قلبهُ اصبح مدفناً للحب ولم يعلم بما خبأتهُ لهُ يد الاقدار . فاتفق ذات يومٍ ان أُسرة قدمت تلك القرية لقضآء ايام من فصل الصيف وكان بين افرادها فتاةٌ في زهرة الصبآء يقال لها نينا فتعرَّف راعول بها وبذويها فافضى التعارف الى الزيارة ثم الى الالفة وتمكنت بينهُ وبينهم صلات الصداقة المحكمة ولم يمضِ بعد ذلك الاّ القليل حتى شعر بعاملٍ قوي يجذبهُ الى مجالسة نينا والتقرب اليها وأحسّ بخفوق في قلبه كلما سمع صوتها او قابل نظرهُ نظرها فعلم ان جرثومة الحب التي كمنت في قلبه قد اخذت تستيقظ للحياة فنفضت عنها غبار الموت وبدا الحبّ في معظم قوّتهِ وكمال شدتهِ حتّى ملأ فؤاد راعول ومسّت شرارةٌ منهُ قلب نينا فاضطرم واصبح القلبان يتقلبان على نار الحب الصادق والحيآء يمنع الواحد منهما عن مكاشفة الآخر بما في ضميرهِ

واتفق ذات ليلة ان جماعةً من زوّار القرية خرجوا للتنزه في نور القمر وكان بينهم اهل الفتى والفتاة فقُدّر لراعول ان يسير مخاصراً لنينا حتى اذا اعياهما المسير جلسا على صخرةٍ كبيرة فوق تلٍّ صغير مشرف على وادٍ عميق وكانت الطبيعة باديةً امامهما باجمل مظاهرها وكانها كتابٌ مفتوح لا يُقرأ فيهِ الاّ آيات الحبّ وكأن النسيم العليل لحنٌ غراميّ ينبّه القلوب الى الهيام فلم يشعرا الاّ وقد باح كلٌّ منهما للآخر بسرّ هيامهِ وتعاهدا على الحب والوفآء واقسما بحضرة الله يميناً اكيدة بان لا يخون احدهما الآخر ولا ينفك عن حبهِ مدة الحياة ثم ختما العهد بقبلةٍ حارّة اشتركت في رسمها على الشفاه كل قوى نفوسهما الملتهبة بنار المحبة الصادقة

وبعد مرور بضع دقائق استفاق العاشقان من خمرة المسرّة وانتبه راعول الى نفسهِ فشعر كأَن سهماً اخترق فؤادهُ فأجفل وحاول الابتعاد عن حبيبتهِ كمن جنى اثماً كبيراً ثم قال لها وهو لا يضبط انفاسهُ اغفري لي يا نينا فقد اسأت اليكِ وانسي اذا استطعتِ ما جرى بيننا في هذه الساعة . قالت هل ندمت على عهودك ورغبت في ان تتبرأ من يمينك . قال لا ولكني اخاف عليكِ من حبي واخشى ان يكون سبباً لشقآئك عوضاً عن ان يكون باعثاً على سعادتنا . ثم اني لا اخفي عنكِ اني لم اكن موفّقاً في الحب فقد احببت في ماضي ايامي مرّتين وكانت صفقتي في كلتيهما خاسرة . وفوق كل ذلك فانا الآن صفر اليدين ليس لي من المال ما يؤهلني لأن اكون ربّ بيت وفي هذه الايام لا كرامة الا للغني ولو كان لئيماً وابن لئيم فهل تظنين ان قومكِ يرضون عن حبنا متى عرفوا بضيق ذات يدي . قالت ان قومي يحترمون في الشخص آدابهُ وشرف نفسهِ وكرامة اخلاقهِ ونبلهُ واجتهادهُ وهي صفاتٌ تفضل كل الغنى بل هي جالبة للمال على ما اظن وفضلاً عن ذلك فانا قد احببتك بكل ما في جسدي من الحياة وما في حياتي من قوّة الحبّ فان كنت انت قد احببت مرّتين فانا لم اعرف الحب الا هذه الساعة وقد كان قلبي قبل ان عرفتك صحيفة بيضاء فانت اول من خطَّ فيها آية الحب باحرفٍ نارية وانت اول من مسّ بشفتيهِ شفتيَّ بقبلة الحب المحرقة وستبقى انت وحدك حبيباً لقلبي الى ان يفصلنا الموت . قال اتعاهدينني على الامانة والصبر والثبات الى ان يقدّر لي الله الحصول عليكِ فان الحب يولّد العجائب ولا بدّ لي من مكافحة الزمان حتى

انال منهُ غنيمةً تليق بان ألقيها عند قدميك وتساعدنا على قطع مرحلة العمر . قالت اني رضيتك لي حبيباً غنيا كنت او فقيراً فلا انكث لك عهداً ما دمنا في هذا الوجود . قال اني اصدق كلامك وانت منذ الآن جزءٌ من حياتي فألقي بين يديكِ قلبي وسعادتي وآمالي فاحفظي الوديعة الى ان يمنّ الله علينا باللقآء الذي لا فراق بعدهُ . ثم انتهت المفاوضة بتجديد العهود والايمان وتكرار القبلات الحبية

وبعد يومين عاد اهل الفتاة الى مدينتهم فكتبت نينا الى راعول تقول اني راجعة مع قومي الى بيتنا ولكني ابقي معك قلبي فكن واثقاً بامانتي وأرِني منك مثلها الى ان يمنّ الله بالجمع بيننا

* * * * * * * * * * * *

اما والذي ابكى واضحكَ والذي امات واحيا والذي امرهُ الامرُ
لقد تركتني احسد الوحش أن ارى أليفين منها لا يروعهما الذعرُ

في هذه البسيطة قومٌ لا يطيقون رؤية حبيبين سعيدين في حبهما فلا يفترون عن دسّ المفاسد والقآء الضغائن حتى يحوّلوا سعادة الحب الى شقآء وحلاوتهُ الى مرارة . اندفعت ألسنة الوشاة على راعول ونينا بالثلب والوقيعة واثنوا على والديها واسرتها باللوم والتعيير لميلها الى رجلٍ من ذوي الفاقة والخمول حتى حالوا دون لقآء الحبيبين ومنعوا اتصال المراسلة بينهما فوقعا من جرآء ذلك في ضنكٍ شديد وعلا النحول جسديهما وخطت اقلام الدموع في صفحات وجناتهما اسطر الشكوى فلم تجففها زفرات انفاسهما الملتهبة . وكان رجلٌ يقال لهُ اميل من اصدقآء الاسرتين قد وقف على بعض الخبر

وكان يودّ راعول مودةً اكيدة ويتردد عليهِ في اكثر الايام فافضى اليه راعول بسرّه واطلعهُ على ما يضمر من الحب لنينا وما يقاسي من لوعة الهجر لحؤول الوشاة بينهما فعزم على التوسط لاصلاح ذات البين وتحقيق آمال العاشقين

ولما رأى والدا نينا انها لا تزداد على اللوم والتقريع الا تعلقاً بحبيبها وان البعد بينهما لم يكن الا سبباً في اشتداد حنينها اليه وسقمها به عزما على ان يأتيا الامر من وجهٍ آخر فجعلا يكثران من المآدب والدعوات والليالي الراقصة يدعوان اليها نخبة الشبان من معارفهما وانسبائهما لعلها تتعلق بواحد ممن يريانهِ اهلاً لمصاهرتهما . فكانت نينا تجد في ذلك كله من الكرب والمضايقة ما يزيد فؤادها عذاباً وعيشها تنغيصاً لانها كانت تفضل صحبة راعول على كل ما في العالم من دواعي المسرّة واللذة . لكنها رأت بعد ذلك ان اصرارها على ذرف الدموع والخلوة بنفسها لتتمثل حبيبها لا يزيد ذويها الا تشبثاً بمثل تلك المعاملة فاخذت تجامل زوارها وتجتهد ان تتلّب قوّة ارادتها على رقة فؤادها فتظاهرت بنسيان راعول واستبشر اهلها بنجاح مساعيهم

اما راعول فكان محباً مهجوراً لا أليف لهُ ولا مؤازر ولا من يصغي الى تنهداتهِ او يرق لشكواهُ ويرحم فؤادهُ الكسير فغلب عليهِ النحول واصبح حائراً لا يعلم ماذا يفعل وانحصرت قوى عقلهِ في تذكار ماضي ايامه السعيدة بقرب نينا حتى اصبح هيامهُ بها شغلاً ملازماً لم يترك لهُ فرصة للاهتمام بامرٍ آخر . وكان ظنهُ ان نينا ستنكث عهدها معهُ وانها ستقترن بسواهُ يذيب فؤادهُ جزعاً فيتأوّه ويتحسر ولا يشكو لغير الله امرهُ حتى

غلب عليهِ الشقآء فسقط في وهدة اليأس وخيف عليه من الجنون

ولما اشتدَّ بهِ الضيق لم يرَ بدًّا من الكتابة الى نينا فارسل اليها يقول « ان سكوتكِ الطويل قد اعدمني الصبر واحرق فؤادي وكنت معتادة ان تكتبي اليَّ من وقتٍ الى آخر فلمَ هذا الانقطاع . أليس من الحرام ان تريني أشوَى على نار الهجر ولا تمدّي يداً لانقاذي . ان كلمة منك تردّ اليَّ رمقي فاكتبي لي بواسطة صديقنا اميل فانهُ عالمٌ بحبنا راض عنهُ راغب في المساعدة متى ازف وقتها . اني لا اشك البتة في صدق حبك ومواعيدك ولكني اذوب شوقاً الى سطرٍ بخط يدك يجدّد لي حياة الامل بقرب اللقآء . . . »

ثم مرَّت الايام ولم يرد الجواب المنتظر فقلق راعول اشد القلق وخشي ان تتحقق اشاعة بعض المرجفين بان نينا ستُخطب عن قريب لابنى من اصدقآء قومها . وفيما هو يتقلب على نار الانتظار اذ دخل عليه اميل وقال كنت وعدتك ان اكون مدافعاً عنك مساعداً لك في حبك عاملا على صلة الحبل بينك وبين فاتنتك وكنت اظن اني اخدم بذلك قلبين يحبّان حقيقةً حبًّا يفوق كل وصف اما الآن فاقول لك بكل صراحة انك خدعتني باقوالك ومن الآن انفض يديَّ منك فلا تعتمد على مودتي ولنحسب بعضنا معارف لا اصدقآء . فقال راعول متعجبًا وما سبب هذا الانقلاب . قال وصلني اليوم كتاب من نينا تقول فيه انك كتبت اليها تكلفها ان تعود الى مراسلتك بواسطتي وامرتني ان اقول لك انها لا تقبل منك كتاباً ولا تريد ان يكون بينك وبينها علاقة فاذا كنت تعلل نفسك

بالاقتران بها فانزع هذا الامل من فكرك واعلم ان ذلك لا يتمّ البتة فاحسب الماضي حلماً عبر . فقال راعول وكيف يمكن ذلك وقد عاهدتني العهود الوثيقة على ان تكون لي كما انا لها وحياة كل واحد منا وقفٌ على الآخر فلا يحول احدنا عن مودة صاحبهِ ولو اجتمعت قوّات الارض ضدنا . بل الذي اتيقنهُ ان الكتاب الذي اشرت اليهِ ليس منها فانها اطهر من ذلك ذمةً واوفى عهداً . قال لكن الامر على ما اقول لك وقد علمت عن يقين ان التي تتهالك في حبها قد غدرت بعهدك واعطت يمينها لسواك وفي رأيي ان تنزع حبها من قلبك وتسلوها وقد علّمتك الايام ان لا تثق بعهد انثى . قال هذا ثم تناول قبعتهُ فلبسها وخرج

* * * * * * * * * * * *

متُّ شوقاً فأحيني بوصالٍ اخبر الناس كيف طعمُ الممات

قضى راعول مدةً من الزمن وهو كالمأخوذ لا يطيب لهُ مقام ولا يلتذ بطعام ولا بمنام وكانت انياب الشك تمزّق فؤادهُ ونار الهجر تحرق احشاءهُ لانهُ لم يستطع تصديق ما روي لهُ من ان نينا قد زهدت في حبهِ ورغبت في سواهُ . وكان تذكار ماضيهِ يحرمهُ كل راحة فكان خيال نينا لا يبرح نصب عينيهِ فيتذكرها في كل ساعة من حياتهِ في اليقظة والمنام ويتمثلها جالسةً اليه يترنمان بألحان المسرّة او يطالعان حديث اهل الغرام السالفين او يسيران متنزهين في العربة او جرياً على الاقدام في نور القمر فيرى في كل هذه الاحوال حبيبتهُ بقربهِ اما ماشيةً تستند على ذراعهِ او جالسةً وقد القت رأسها على صدرهِ الخافق فيضطرب فؤادهُ اضطراباً

شديداً ويظن ان صدرهُ يكاد ينشق من شدة الوجد . ثم ينظر الى حالتهِ الحاضرة فيرى نفسهُ وحيداً مهجوراً بلا خلٍّ يؤاسيهِ ولا شفيقٍ يسليهِ ولا عينٍ تبكيهِ فينفطر قلبهُ حزناً وتثور في رأسهِ سورة الغيظ فيودّ الانتقام ممن حال بينهُ وبين حبيبتهِ ثم تخمد فتنة عواطفهِ فيرتعد وجلاً وتنفجر دموع الحزن من عينيهِ كانهُ يبكي غصن شبابهِ المقصوف او زهرة حبهِ المقطوفة او يحاول بالدمع اطفآء نيرانهِ المحرقة

وفيما كان راعول على الحالة التي مرّ ذكرها كان ثلاثة من الشبان يترددون الى بيت نينا ويواصلون الزيارة فكان راعول يراهم داخلين او خارجين فيذوب قلبهُ كمداً . وفي ذات يوم سار راعول على غير هدًى وهو لشدة بلواهُ يحدث نفسهُ في امر الانتحار للنجاة من الشقآء الذي ألمّ بهِ فرأى جماعةً من السيدات والرجال يسيرون ضاحكين مقهقهين كأن الكآبة اسمٌ لغير مسمًّى او اسمٌ لمسمى لم يعرفوهُ . فوقف يتأملهم واذا بهِ يرى نينا مستندةً على ذراع احد الرفقة وهي ناحلة القوام صفرآء اللون فلما ابصرتهُ تنفست تنفساً عميقاً ثم اغضت من بصرها مطرقةً الى الارض فلما رآها كذلك اعرض عنها بوجههِ وقد طفح الدمع على خديهِ ورجع الى منزلهِ وهو غائب عن الرشد لشدة آلامهِ النفسانية فوجد على مائدتهِ رسائل وجرائد اتاهُ بها موزع البريد فاخذ يطالعها كمن يحاول التشاغل عما بهِ من الوجد والالم فوقعت عينهُ في احدى الجرائد على الخبر الآتي

« يوم الخميس الآتي يحتفل في ... بزفاف السيدة نينا ... الى الخواجا باستور في الساعة التاسعة مسآءً »

فلما قرأ هذه الكلمات شعر ان الدم جمد في قلبه وفارقهُ صبرهُ وثباتهُ فاستلقى على سريره كالمدنف الذي يتوقع انطفآء نور حياتهِ لينقلوهُ الى ضريحهِ

وفي اليوم المعين لصلاة العقد اجتمع المدعوون وكان منزل العروس مزيناً بالانوار الساطعة مكللا بالازهار الجميلة والناس يمرحون طرباً وبينهم المغنون والراقصون والموقعون على آلات الطرب والسقاة يطوفون باقداح المسكر • حتى اذا دنت الساعة جآء العروس وآلهُ فوقف بجانب نينا امام الكاهن فاقبل الكاهن على العروسين يسألهما عن رضى كل واحد منهما بصاحبهِ كما هي العادة فلما انتهى في السؤال الى نينا لم يكن من جواب فاعاد عليها السؤال فرفعت رأسها ونظرت اليه كانها تريد ان تقول شيئاً ثم ارتعشت وسقطت الى الارض مغشيًّا عليها فاسرع الحضور لانهاضها فاذا هي جثة بلا روح • فارتفعت الاصوات من كل ناحية وازدحم الجمع ليروا ما حدث وبينا هم في ذلك اذ سُمع طلق رصاص في احدى زوايا المكان فانصرف القوم الى جهة الصوت واذا راعول ملقى على الارض يختبط بدمهِ وقد اخترق الرصاص دماغهُ • فانقلب العرس الى مأتم واقبل الحاضرون على آل العروس يعزونهم عن مصابها وهم بين آسفٍ على شباب الحبيبين وبين لائمٍ لذويها على دخولهم بين ذينك القلبين اللذين ارتبطا بصلات الحب وعهود الولآء • ولما حان وقت الدفن حملوا الجثتين الى المقبرة وبعد الصلاة عليهما ابى الحاضرون الا ان يُدفنا في ضريح واحد ثم انصرف الجمع وهم يندبون شبابهما ويدعون لهما بالرحمة والغفران